

## ليلي المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- ١٧ -

أمرى إلى الحب !

أمرى إلى الهوى !

بل أمرى إلى الله الذي بقلوب القلوب

\*\*\*

كانت ليلتي في قطار البصرة ليلة شاتية ، وما كنت أخذت  
أهتبي لكافة البرد في قطار البصرة ، وهل كنت أعلم أن البرد  
في قطار البصرة له تواريخ ؟

لقد عشت دهرى مفتوناً بشبابي ، لأنني نشأت في أسرة كان  
أكثر رجالها من الباليق

وكذلك يزّين لي الفتون أن أمتطي قطار البصرة في ليلة  
شاتية بلا غطاء

دخلت البصرة محمواً ، دخلتها أهذى هذيان المحموبين  
ولكنني تذكرت فجأة أن سماعة السيد عبد الجبار الراوي  
حاكم الحلة كان كافئ تليغ التحية إلى سماعة الدكتور عبد الحميد  
الطوخي مدير الصحة بالبصرة ، وتذكرت أن هذا الطبيب مصري  
سقله العراق ، وأنا على كل حال أحب المصريين ، فقد شاع في  
بقاع الأرض أني مصري ، ومن واجبي أن أحب مصر وفاء  
أوربا .

ذهبت محمواً للتسليم على هذا الطبيب فكاد يطير من الفرح  
بلقائي . فقلت له : هوّن عليك ، فما جئت إلا لأبلغك تحية حاكم  
الحلة ، الحلة الجميلة التي تشبه شبين الكوم حاضرة النوفية  
وما هي إلا لحظة حتى تقلني هذا الطبيب إلى حاكم البصرة ،  
وإلى مدير المدارس بالبصرة ، وكان اليوم كله طوافاً بما في البصرة  
من غرائب وأعاجيب

وعند الغروب لقبني الدكتور عبد الحميد القصاب فقال :  
ارجع بنا إلى بغداد . فقلت : لا أستطيع . فقال : إنك ستاتي

كلمة مصر في تأيين المغفور له ياسين باشا الهاشمي ، واسمك في  
منهج الاحتفال

فقلت : أعرف ذلك ، وأفهم قيمة الشرف الذي أظفر به في  
حفلة يخطف فيها نخامة رئيس الوزراء ، ونخامة نوري باشا السعيد  
ولكنني محموم ، وما أستطيع أن أعافر البرد في قطار البصرة  
ليلتين متواليتين

وأرسلت برقية اعتذاز ، وأويت إلى فراشي بالفندق أعاني  
الغربة والمرض والحب . وشاع في البصرة أني مريض ، فتفضل  
حاكم البصرة ومرراً بالفندق فترك لي كلمة عطف ، ونفضل مدير  
الصحة بميادتي فأزججه حالي

وفي الصباح أقتت ، فكان أكبر همي أن أزور قبر أستاذي  
في التصوف ، مولاي الحسن البصري ، ولكن كيف ؟ لقد قضيت  
ليلتي محمواً وقضت السماء ليلها في بكاء

وأويت مرة ثانية إلى الفراش لأن المطر جعل ذهابي لزيارة  
قبر الحسن البصري غرماً عزيز المنال

وطلبت الجرائد لأتلهى بها فرأيت في جريدة « الناس »  
وجريدة « الثغر » أني سأاتي محاضرة بنادي البصرة ، فذهبت في  
الموعد وتكلمت نحو خمسين دقيقة عن ماضي البصرة ، ثم مضيت  
إلى الفندق فأخذت أتمتعى لأعافر البرد من جديد في طريق  
إلى بغداد

هل يعرف قاري هذه المذكرات كيف يشقى من يقضى  
ثلاث عشرة ساعة في القطار وهو محموم ؟

علم ذلك عند الأستاذ النبيل الذي يدبر إحدى المدارس في  
بغداد فقد أخرج ما في حقائبه من أغذية وملابس وألقاها فوق  
جسمي لأنجو من البرد الذي قتل أخانا أبا الدرداء

صرعني البرد في الذهاب والإياب ، وأضرعتني الحمى فلم أدخل  
بغداد إلا وشفتي زيتها عقيببول ، والعقبول هو التشق الذي  
يعيب الشفاء من وحمج الحمى ، ومنه جاءت عقايل الحب ،  
وكذلك اجتمعت العقايل في قلبي وشفتي ، وهو أول حادث يقع  
في التاريخ

كان هذا العقبول مزيجاً ، فقد كان كل من يراني يحسب أني  
أصبت بأخت بغداد ؛ ولو صح ما حسبوا الكانت نكبة ، فأصبت

خرجت من مجلس النواب منشرح الصدر . ولقيني أحد النواب فقال : كيف رأيت ؟ فأجبت : رأيت وجه الحق . ولكن آذاني أن تكون حجة الموافقين على معاهدة الحدود مقصورة على أن إيران جارة عزيزة . فما الذي كان يصيركم لو قلم إن إيران أمة إسلامية ، وإن المسلمين يجب أن يتسامح بعضهم مع بعض ، نحن مسئولون عن الأخوة الإسلامية أمام الله وأمام التاريخ . مسئولون أمام الله الذي بكره أن يبني المسلمون بعضهم على بعض ، ومسئولون أمام الماضي الجليل الذي تعاونت فيه الأمة العربية والأمة الفارسية فأنجبتا أشرف ذخيرة من ذخائر الأدب والتشريع . إن العداوة بين العرب والفرس أوجب جذوتها ناس من الأدباء ، فما الذي يمنع من أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين فيخلقوا الحب بين إيران والعراق ؟

إن فرنسا لها مدرسة لنشر اللغة الفرنسية في إيران  
فما الذي يمنع أن تقوم الحكومة المصرية أو الحكومة  
العراقية بإنشاء مدرسة لنشر اللغة العربية في إيران ؟  
حدثك النائب في وجهي طويلاً وقال : هذا رأي وجيه ،  
ولكن الظروف ...

قلت : أي ظروف ؟ إن أوروبا يسرها أن تتمزق . وهي قد  
استطاعت بالفعل أن تؤلب المسلمين بعضهم على بعض وأن تضرب  
العرب بعضهم ببعض . وإذا استمر الحال كذلك ربع قرن فلن  
تجد من يرد عليك السلام في مصر ، ولن أجد من يرد عليّ  
السلام في العراق

\*\*\*

الحمد لله . تم الصفاء بين إيران والعراق ، ومرت معاهدة  
الحدود بسلام ، والله المسئول عن هداية العرب والمسلمين  
ولكن شط العرب الذي عجز عن تكدير السلام بين العراق  
وإيران استطاع أن يكدر السلام بيني وبين ليلى  
كنت انقطعت عن زيارة ليلى إلى أن يذهب المقبول الذي  
شوه شفتي ، فاستوحشت ليلى لقبائي ، وأرسلت ظمياء للسؤال  
عني ، فطار بي إليها الشوق ، فلما وقع بصرها على شفتي قالت :  
ما هذا الذي بشفتك ؟  
فأجبت : هذا عقبول

بنداد إذا أصابت الشفة كانت نذيراً بالحرمان من جميع أخوات بغداد  
ومن أجل هذا المقبول حبست نفسي في المنزل أسبوعين  
قضيتهما في إنجاز كتاب « عبقرية الشريف الرضي »  
ولكن هذا الحبس كانت له أيضاً عقابيل ، فقد اشتغلت  
بالسياسة العراقية مع أني أطلقت السياسة المصرية منذ أعوام طوال  
وتفصيل ذلك أن مجلس النواب كان يستمد لدرس معاهدة  
الحدود بين العراق وإيران ، وكان شط العرب محور النزاع ،  
شط العرب الذي تفتتت به في البصرة ونشرت ثنائياً عليه  
جريدة البلاد

كان العراق في قوّة ، وكنت في قوّة ، وما أشق من  
يضطرم صدره تحت سماء العراق !

ومضيت إلى رئيس الكتاب بالمجلس النيابي ، وهو صديق  
عزيز ، فطلبت تذكرة لحضور تلك الجلسة التاريخية . وكنت  
أول من دخل شرفة المجلس في ذلك اليوم ، فهالني أن أرى خريطة  
شط العرب مزقومة بالطباشير على لوحة سوداء

كان الجو كله دخاناً في دخان ، وكنت أكاد أختنق  
ثم وقف وزير الخارجية يخطب ، وما كان أروع في ذلك  
اليوم ، فقد بدد ما ران على صدرى من ظلمات

وتدفق الخطباء بين معارض وموافق ، وكانت جلسة برلمانية  
حقاً وصدقاً . كانت جلسة صريحة أبدى فيها النواب آراءهم  
بألفاظ لا مداورة فيها ولا التواء

خطب وزير الخارجية خطبتين في ذلك اليوم وكان بالنأ كيد  
أشجع الخطباء . ولن أنسى أنه قال : كان في يقيني أن أقترح  
جعل هذه الجلسة سرية ، ثم رأيت أن تكون علنية ليرى الجمهور  
بيته أن الحكومة حريصة على أرض الوطن كل الحرص  
وسألت أحد الصحفيين عن هذا الرجل فقال : أما تعرفه ؟  
هذا زميلك

قلت : وكيف كان زميلك ؟

فقال : هو سوربوني مثلك ، هذا توفيق باشا السويدي  
خرج السوربون

السوربون ! السوربون !

رعى الله عهدي يوم كنت أجول فيها وأصول !

\*\*\*

فقلت : أما آن لك أن تترب ؟

فقلت : ماذا تمنين ؟

فأجابت : ما هذا عقيبولا يا حضرة الدكتور

فقلت : وما هو ؟

فأجابت في سخرية : هذه عضة سمكة من أسماك شط العرب !

فأقسمت بالله والحب أنني ما حاولت الصيد في شط العرب

حتى تمضى السمكات

وظالت اللجاجة بيني وبين ليلي ، وجملي الغضب على أن أقول :

اسمى ، أنا مستمد لما هو أخطر من ذلك

فقلت : إيش لون ؟

فقلت : أنا مستمد لتقبيل ثمر الحية

فقلت وعيناها تقذفان بانشرر المتوقد : لن تقبل ثمر الحية .

فانزعجتُ وعرفتُ أنه وعيد

وانقضت السهرة في كلام تافه ، وعند الانصراف لم تسألني

ليلي متى أرجع ؟

\*\*\*

آه ، ثم آه !

كانت ظمياء خدعتني حين قالت إنها وصلت مع ليلي إلى

القاهرة في آذار شهر الأزهار والرياحين ، فقد عرفت أن آذار

القاهرة غير آذار بغداد . عرفت بالتجربة أن العراقيين على حق

حين يحكمون بأن « آذار ، شهر الزوابع والأمطار » فقد قضيت

هذا الشهر في كروب وأحزان

ولكن أى كروب وأى أحزان ؟

كنت أذهب لتأدية الدروس في الصباح ، وكنت أذهب بعد

المصر إلى المطابع لأصحح تجارب كتابي ، ثم أرجع قبيل المغرب

إلى البيت لأعاني وحشة الليل ، الليل الهائل ، ليل بغداد

وزاد الكروب أنى انقطعت انقطاعاً تاماً عن المصريين

والعراقيين

انقطعت عن المصريين للسبب الذي شرحت في كتاب

« ذكريات باريس » وهو سبب يؤذي أن أسجله مرة ثانية في

هذه المذكرات ، وأنا في الواقع أنسى مصر حين أفارق مصر ،

لأنى أفهم أن مصر حين ترسلني إلى باريس أو بغداد لا تريد إلا

أن أفهم باريس أو بغداد . ومصر لا تلمب ، فهي تحب لأبنائها

أن يفهموا روح الغرب وروح الشرق ، وأنا فيما أزعج معسرى

تجبه مصر ، وإن كانت لا تلقاني بنير المبوس

وانقطعت عن العراقيين لأن حسابي عندهم أثقل من الجبال .

ولن أنسى السهرة التي قضيتها في منزل السيد محمد حسين الشيبيني

فقد قضيت ثلاث ساعات وأنا أندفق كالسيل دفاعاً عن الآراء

التي أذعتها في مؤلعاتي ، وأذاني ذلك الجهد فرضت يومين —

أين أذهب ؟ لا أدري أين أذهب

كنت أذكر ليلي لأيام الشقاء ، وهي الآن في غضب وتغيب .

كانت ليلي تقول حين أمم بالخروج : فراقك صعب سيدي ،

وهي اليوم لا تقول شيئاً من ذلك ولا تسأل متى أرجع

كانت ليلي تقول : « ليش ماجيت عندنا من زمان يا دكتور ؟ »

وهي اليوم تسأل فيما أظن — وبمض الظن إنم — متى

أرحل عن بغداد

عافك الله يا ليلي وأسبغ عليك نعمة العافية !

\*\*\*

تباركت ياربي وتعاليت

فعاينت في حياتي بلاء الإرايت ما يصحبه من محمود العواقب .

فبفضل تغضب ليلي وتمتبا عرفت سر أمن أغرب الأسرار ،

عرفت كيف ظل العراقيون أكثر من ثلثائة سنة بقتون هذين

البيتين :

ولى كبد مقروحة من يبيعي بها كبداً ليست بذات قروح

أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح

لقد هدى غضب ليلي فلم أعد أعرف للحياة أى مذاق ،

وجزعت على ما صرت إليه أشد الجزع ، فهذا الربيع بفيض على —

أرجاء العراق أرواح الإبتهاج والانسراح ، وقلبي وحده يمشي

بلا ربيع

وجاء ( نيسان ، شهر الزيادة والنقصان ) فلم يهش له قلبي ،

وبقيت أعاني ألم الوحشة والافتراق

كنت أستطيع غشيان بعض الملامح لأنسى همومي وما في

ذلك ما يضيرني ، فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني يجلس

في قهوة متانيا بالقاهرة يوم كان الجلوس في مثل تلك القهوة شيئاً

وتاريخ ليلى ابتداءً في القاهرة واستفحل في بغداد ، ومن الواجب أن أكون على بينة من تفاصيل ذلك التاريخ ، وعلم ذلك عند طعياء

\*\*\*

- إيش لونتك يادكتور !
  - أعاني ظلام الحب وظلام الليل ، وإيش لون ليلى ؟
  - إستراحت لسكايدتك فدبت في روحها الدافئة
  - وكذلك أبني الأصدقاء لهدموني يا طعياء
  - لا تندم على ما صنعت من جميل
  - سمعت وأطعت يا بنتي الدافئة ، ولكن أحب أن ترجع إلى حديث ليلى مع الضابط عبد الحسيب
  - فأنشر صدر طعياء وأخذت تقول ...
- زكى مبارك « للحدث شجون »

## حياة الرافعي

كتاب ينهياً لإصداره الأستاذ محمد سعيد المريان صديق الرافعي وتلميذه وكان وجهه . وهو كتاب فريد في نظمه وأسلوبه : يتحدث عن حياة الرافعي ونشأته وثقافته ووجهه ، والعوامل التي أنشأته في الأدب ، والمؤثرات التي أثرت في إنتاجه الأدبي

وهو في أسلوبه ينحو منحى جديداً في أدب التراجم ، يقرؤه قارئه كما يقرأ قصة محكمة الذبح متتابعة الحوادث مسلسلة الفكرة ؛ تقرأ للتسلية وإمتاع النفس كما تقرأ للأدب والتاريخ .

ثم هو فوق ذلك سجل لطائفة من أدباء الجيل ، يكشف عن كثير مما يهم قراء العربية أن يعرفوه من تاريخهم الأدبي وتبلغ صفحات هذا الكتاب نحو ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط

وسيكون ثمن النسخة منه بعد الطبع ١٥ قرشاً ، ولن

شاء الاشتراك فيه قبل الطبع أن يدفع ١٠ قروش فقط ،

يدفعها إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه بشبرا

مصر ، شارع مسرة ، رقم ١٦

غير لائق ، وكان يقول : من حق الفيلسوف أن يجلس في قهوة متاتيا ، وأنا دكتور في الفلسفة ومن حق أن أجلس في قهوة متاتيون !

ولكن ملاهي بغداد فيها أغانٍ وألحان ، وقد صرت بمد غضب ليلى مرهف الحس إلى حد مفزع ، وأخشى أن أسمع الغناء مع الناس فتفضحني عندهم دموعي

وكان يتفق أن أسمع المذياع من حين إلى حين فأنومه يدمدم : ولي كبد مقروحة من بيبي مني بها كبداً ليست بذات قروح ومن غريب ما وقع أن غضب ليلى قبول بعوض مزعج هو كرم أهل العراق

كنت أدخل المطاعم للنداء أو للمشاء فأجد من يدفع عني من حيث لا أعرف . وكثر ذلك حتى أضجرتني ، وما كنت بخيلاً حتى أنكر الكرم ، ولكن قلبي كان يهتف بقول الزميل القديم :

آل ليلى إن ضيفكم واجد بالحي مذ نزلا  
أمكينوه من تنبيها لم يرد خمرأ ولا عسلا  
وفي حومة من هذه الحرب الوجدانية سمعت أن جماعة من الأطباء كتبوا يشكونني إلى الجمعية الطبية المصرية ، وهم يزعمون أنني حثت في الميخ ، فقد أقسمت كما أقسموا ألا أفشي سراً لمريض ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن مرض ليلى أصبح معضلة دولية ، ولكن هل يعقل من في قلوبهم مرض ؟

آه ثم آه من حقد الزملاء

\*\*\*

لم تسألني ليلى متى أرجع ، ولكن لا بد أن أرجع وهل هنت على نفسي إلى هذا الحد ؟

ما هنت على نفسي . فقد رعاني الله فمشت طول حياتي عزيزاً ، ولكن هذه فرصة أختبر فيها أخلاق . هذه فرصة ثمينة قد لا تعود . إن ليلى تحمد علي ، وتهمني بخيانة الحب ، ومن واجبي نحو الأخلاق أن أرحم من يرتاب في أخلاق ، فما ارتاب في أخلاق غير الضعفاء والساكنين

ولكن ليلى لها تاريخ ، وأشقى الناس من يمشق امرأة

لها تاريخ